البعد الإسلامي في كتابات البشير الإبراهيمي

أ.بلعربي عبد القادر

جامعة سيدي بلعباس

ملخص :

إنّ البعد الإسلامي لكتابات البشير الإبراهيمي الذي نحن بصدد الحديث عنه، تعني التّوجه الإسلامي ككل، فالإمام الإبراهيمي قد كتب في القضايا الأدبية والتاريخية والفكرية، ومن هذه الكتابات سنحاول استخلاص هذا التّوجه سواء كان ذلك في محتوى ومضمون هذه الدراسات أو من خلال المقدّمات والاستهلالات والخاتمات، حيث إنّنا لم نشمل بدراستنا هذه كل خطبه، ولكنّنا حاولنا التّعرض لذلك من خلال المؤلفات التي تمكنا من الإطلاع عليها. ومن خلال إطّلاعنا هذا لامسنا البعد الإسلامي متمثّلا بوضوح في كتابات البشير الإبراهيمي، إذ يدافع عنه كمقوّم أساسي للهوية الوطنية وهو يقرنه أحيانا بالعروبة، ويتحدّث عنه حينا آخر كبعد مستقل بذاته.

الكلمات المفتاحية : البشير الابراهيمي ،الجامعة الاسلامية ، العروبة ، الاصلاح.

مقدمة :

إنّ الحديث عن الشيخ محمد البشير الإبراهيمي هو حديث عن أصالة وحضارة وصمود ونهضة وتحرر، فقد جسّد الجزائر في شخصيته نشأة وتكويناً وإشعاعاً وقولاً وكتابة وسلوكاً، وكان غير بعيد عن ما يحدث للعالم الإسلامي في تلك الفترة، وذلك ناجم عن شعوره بالانتماء إلى الوطن الإسلامي و الثقافة الإسلامية،كما أنّ المتتبِّعَ للإنتاج الذي كان الإبراهيمي يُتْحِفُ به قُرّاءَه نَثراً ومُحاضراتٍ وخُطَباً وشِعراً يَستطيعُ أن يَتبيَّنَ الموضوعاتِ التي كان الإبراهيمي يثيرُها . أي إنّ هذه الموضوعاتُ تكادُ تتمحورُ كلُّها حول الأمّةِ العربية والإسلاميةِ؛ حيث برز هذا الاهتمام من خلال كتاباته العالمية التي أُضفي عليها الطابع الإسلامي .

1 – نبذة عن حياة الشيخ البشير الإبراهيمي :

ولد البشير الإبراهيمي يوم الخميس 4 شوال عام 1306هـ الموافق 10جوان 1889م في قسنطينة، نشأ في إقليم "ريفه " تأدّب على يد عمّه الشيخ المكي الإبراهيمي وهو لم يبلغ سنّ المراهقة، أخذ عنه علوم العربية ومقدمات الأصول الفقهية من منطق و البيان [1]، نشأ الإبراهيمي في عائلة جزائرية ذائعة الصيت ، توارث أفرادها العلم أبا عن جدّ منذ أكثر من خمسة قرون[2]، بدأ رحلاته عن المغرب إلى المشرق وهو في سنّ الشباب، فزار مصر و الحجاز، وعاد إلى وطنه 1920م. كما ساهم في إنشاء جمعية العلماء الجزائريين.[3]

إنّ رحلة الإبراهيمي إلى المشرق العربي، قد فتحت أمامه آفاقا علمية وفكرية وإنسانية رحبة، لم يكن ليجدها لو بقي في وطنه الجزائر، الذي تركه يعيش جفافا ثقافيا وعلميا وفكريا كبيرا ، بفعل السياسة الاستعمارية الفرنسية ، التي اتّخذت من التجهيل الشامل لكل فئات الشعب الجزائري، أداة استراتيجية لضمان بقائها في البلاد، وبالتّالي استغلال مواردها البشرية والاقتصادية دون عناء[4]. أمّا عن مؤلّفاته فيتحدّث عن نفسه و يذكر أنّه لم يتّسع له الوقت للتأّليف و الكتابة مع هذه الجهود، و مع ذلك فقد ساهم بكتابة موضوعات مفيدة مع أنّه لم يساعده الفراغ ولا وجود المطابع على طبعها. ومن بين ما كتب في عيون البصائر [5] "مرض الإبراهيمي" و"لازم الأسد الجريح بيته " لا قعود عن الواجب حين يقعد القائمون بالواجب بعملهم من أجله"

ولكنّ الشيخ لازم بيته؛ لأنّه كان يغالب الأمراض المزمنة، ويصارع الآلام المبرحة، التي أبت إلا أنّ تزيد مرارة الكأس صبا على مرّ الأيام. فتوفى يوم 20/51965/م.[6]

لقد لجأ الإبراهيمي إلى الكتابة في الجرائد من أجل توعية الشعب الجزائري، فلم يدع قضيّة تهم الأمّة الإسلامية في الجزائر وخارجها إلاّ وتطرّق إليها؛ حيث كان ينافح عن كلّ قضية فيها خير للأمة الإسلامية قاطبة. فقد كتب عن قضايا اجتماعية؛ منها "الشبان والزواج" و"الطلاق"، وعن القضايا السياسية؛ منها "فصل الدين عن الحكومة"، "التعليم العربي والحكومة"، وعن القضايا المصيرية "العرب واليهود في الميزان" و"واجبات فلسطين على العرب". فقد كانت له طريقة خاصة في الكتابة، جعلت كل مقالاته زاخرة بالأساليب التعبيرية شكّلت لنا نتاجا نثريا متميّزا يحمل في طيّاته أسلوبا فنّيا جماليا فعّالا في إقناع وإيصال الفكرة إلى الآخر. وهذا ما جعل كتاباته تثير اهتمامات الدارسين في العديد من الجوانب. ومن ذاك كلّه حاولنا تقصّي البعد الإسلامي المتمثّل بوضوح في كتاباته، حيث وجدناه يدافع عنه كمقوم أساسي للهوية الجزائرية خاصة و الإسلامية عامة ، وهو يقرنه أحيانا بالعروبة، ويتحدّث عنه حينا آخر كبعد مستقل بذاته، وذلك بحسب المقام. ويتضح ذلك من خلال عدة عناصر سنعالجها فيما يلي:

1 . الإسلام كبعد مستقل :

لقد كانت لغة الإبراهيمي سهلة بسيطة تعتمد الأسلوب الحجاجي؛ لأنّ جلّ كتاباته كانت موجّهة إلى الشعب الجزائري؛ من أجل توعيته بخطورة ما آل إليه الجزائري من ذلّ وهوان وعبودية وتبعية للمحتلّ. فقد استغلّ كل أساليب الإقناع من أساليب اللغة؛ من أجل ترسيخ فكر الإسلام في أذهان الجزائريين، لأنّ في تلك الآونة كان المستعمر الفرنسي يحاول طمس الشخصية الجزائرية المسلمة لأنّه كان يرى في الإسلام منبع يقظة للجزائريين،

لذلك رأى شيخنا البشير الإبراهيمي أنّ الإسلام العامل الأساسي في وحدة المسلمين، وعظمة تشريعه واقعيته، ونبل مقاصده، وسموه مبادئه وقدرته ليس لحلّ مشكلات المسلمين فقط، بل مشكلات البشرية قاطبة، [7] حيث دعا في كتاباته بأنّ أصلح نظام لتسيير العالم الإنساني هو الإسلام؛ مبيّنا أنّه حينما تولىّ الإسلام في أوّل مراحله قيادة العالم الإنساني العامر بالأقاليم المعتدلة قاده إلى السعادة و الخير بأصلين من أصوله وهما القوة والرّحمة صفتان موجودتان في كل زمان، ولكنّهما متنابذتان لم تجتمعا قط في الماضى ولاالحاضر، حتى جاء الإسلام فجمع بينهما و زواج، وخلط بينهما،[8] فشيخنا يرى أنّ الإسلام في جوهره إصلاح عام منَ الله على العالم الإنساني، بعد أن طغت عليه غمرة حيوانية عارمة، اجتاحت مافيه من فطرة صالحة ركّبها رب العالمين، وما فيه من أخلاق قيّمة وشرائع عادلة، قرّرها الهداة من الأنبياء والمرسلين و الحكماء المصلحين، فيتساءل "كيف يشقى المسلمون وعندهم القرآن الذي أسعد سلفهم ؟ أم كيف يتفرقون و يضلّون وعندهم الكتاب الذي جمع أوّلين على التقوى؟ فلو أنّهم اتّبعوا القرآن وأقاموا القرآن لما سخر منهم الزمان و أنزلهم منزلة الضعة و الهوان.[9]

كما أكّد ذلك بقوله: "إنّ الدّين الإسلامي لا يزال، رغم ضعف آثاره في نفوس أهله وعجز عقولهم عن فهم حقائقه، قادرا على الإشعاع من جديد بروحانياته التي تهزم المادّة وتتفوق على سلطانها ، حتىّ في أوج قوتها وعظمتها[مثلما كان عليه الحال في عصر الإبراهيمي وبعده]، وقادرا على جمع قلوب أبنائه على نوع من الأخوة الفريدة". والملاحظ عبر كتابات الشيخ الإبراهيمي أنّه قد اتّصف بنفس طويل في الكتابة وقلم مسترسل في معالجة القضايا المصيرية للجزائر والعرب والمسلمين، حيث كان يحاول كشف ألاعيب الاستعمار ومكائده، الذي كان يسعى إلى تشتيت صفوف الجزائريين والتبعيد بين قلوبهم، بتشجيع الخلافات المذهبية والدينية والدنيوية بينهم، وباصطناع الحواجز والحدود الجغرافية، التي جزّأتهم إلى أقاليم ودويلات، والحواجز اللغوية من

خلال الإكثار من اللغات والرطانات) اللغات الهجينة الركيكة.[10] ولأجل ذلك كان شيخنا يدعو حثيثا إلى التّجمّع تحت راية الإسلام، لأنّه يعتبره الوطنية الكبرى، التي تجمع كلّ المسلمين، مهما كانت أجناسهم وثقافاتهم وأماكن تواجدهم، فإنّه ينطلق في ذلك من كون أن الوطنيات الضيقة، هي السبب الرئيس في إضعاف الحمية الإسلامية، فيتفرّقوا إلى طوائف ومذاهب، فهو بذلك ينعى على المسلمين تفريطهم في دينهم، وعدم تمسّكهم بحبله المتين. كما نعت الإسلام على أنّه الجامعة الواسعة بقوله:"دعونا إلى الجامعة الواسعة التي لاتضيق بنزيل، وهي جامعة الإسلام، إلى الروحانية الخالصة التي لاتشاب بدخيل وروحانية الشرق، وحذّرناهم من هذه الأفاحيص الضيقة والوطنيات المحدودة التي هي منبع شقائهم ومبعث بلائهم وبيّنا لهم أنّها دسيسة استعمارية، زيّنها لهم سماسرة الغرب وعلماؤه وأدلاّؤه، وغايتهم منها للتفريق، ثمّ التّمزيق، ثمّ القضم ثمّ الهضم...." [11]. فتضحى بذلك الأقطار الإسلامية بما فيها العربية دويلات، في يد الاستعمار الأوروبي الحديث، الذي اقتسمها فيما بين دوّله، تماما مثلما تقتسم الخبزة الواحدة إلى لقم سائغة، يسهل مضغها وازدرادها ثم هضمها في النهاية . وتجعل من الاتّصال بين الأجزاء الإسلامية أمرا مستحيلا، لموت ملكة التعاطف والتعارف بين أهلها، ونتيجة ذلك يتحوّل جسم الأمّة الإسلامية الواحد إلى أشلاء ممزقة، تعيش خارج الأحداث، وتتخبّط في دوّامة من الانحطاط لا مخرج له.[12] ومن خلال مقولاته هذه نستشف أنّ الإبراهيمي كان يسعى إلى بناء الشخصية الجزائرية وإعدادها إعداد إسلاميا سليما. هذا، لأنّه يرى في الإسلام دستورا متكاملا للإنسان قاطبة، "ومردّ هذا أنّ الدّين الإسلامي هو المرجع الأوّل في هندسة حياة الإنسان في كلّ جوانبها، وفي تحديد مصيره، وهو بذلك يحّدد مصير هذا الإنسان، ويهيئه إلى تحمّل مسؤوليته أمام الله، وأمام نفسه وأمام العباد. ولذلك لم يفت الإبراهيمي في بعده الاجتماعي أن يراقب بكلّ حذر أسباب الاتّصال بينه وبين الجماهير وما تتلقّاه هذه من معطيات في التّكوين الاجتماعي." [13]

وعلى أنّ ثمّة ملاحظة يجدر بنا الإشارة إليها وهي توعيته للشعب الجزائري بأن الثورة التحريرية تستمدّ مبادئها من الإسلام حيث قال:إنّه "رغم علمانية الثّورة، كما ظهرت في تصرّفات وتصريحات قادتها فإنّها أعطت للشؤون الإسلامية اهتماما خاصا، وأهمّ هذه الشؤون هي التاريخ الإسلامي والقضاء الإسلامي والأوقاف الإسلامية [14]ويأتي الشيخ الإبراهيمي بأمثلة مدقّقة وبشيء من التفصيل، لتلك الشؤون الإسلامية التي اهتمّت بها الثورة التحريرية.وهذا حتى يشجعهم على الانضمام إليها.

كما شغلت القضية الفلسطينية فكر الإبراهيمي، ومثّلت في كتاباته حملا ثقيلا، وكوّنت عنده العصب الحسّاس في بعده السياسي، ولم يغب فكره عن فلسطين لحظة واحدة منذ أن أصيبت وأصيب هو معها بجرح لن يندمل؛حيث يقول:"أيها العرب : ها هم أولاد إخوانكم المشردون على غلوة سهم منكم لو تسمّعتم لسمعتم أنينهم من الألم يتردد، وحنينهم إلى الدّيار يتجدد ودعاءهم إلى الله يرتفع على كل من أضاعهم وأوجاعهم.إنهم إخوانكم، إنهم أعراضكم و القرابة موضع الثواب والعقاب عند الله .والعرض محل المدح والذم عند الناس. وإنهم انسلخوا من الزمان، فلا ماضي ولا حال ولا مستقبل، فهل تؤمنون أن يبقى أبناؤهم الناشئون في هذه الحالة على الإسلام والعروبة؟ وهل تؤمنون أن يطول عليهم الأمد، ويستحكم فيهم اليأس منكم، فيبايعون اليهود على العبودية المؤبدة؟[15].

2- فكرة الجامعة الإسلامية :

كما شغل بال الشيخ الابراهيمي إنشاء جامعة إسلامية[16]لتحقيق الوحدة الإسلامية؛ إذ يعتبرها أملا قريبا وليس بعيدَ المنال، حيث يقول في هذا الصدد " فكلّ المسلمين يطمحون إلى تحقيق هذا الحلم لأنّ فيه قوتهم وعزّتهم، ومنعة الإسلام وحصانته. والدعوة إلى وحدة الأمة الإسلامية فريضة على كل مسلم من الوجهة الشرعية والسياسية التي كان الغرب يرتعد لمجرد ذكرها،

لأنّ معناها بروز كتلة سياسية على المسرح العالمي، تهتدي بالإسلام وتتّخذه شرعة ومنهاجا، ويتعاون أجزاؤها للتّخلص من السيطرة الأجنبية سياسيا واقتصاديا وثقافيا، وتقدم للبشرية مشروعا حضاريا قويما يحررها من إرهاب الشيوعية ... وينقذها من استغلال الرأسمالية.[17] والجامعة الإسلامية في مفهومه، "هي تلك الجامعة الواسعة التي لا تضيق بأحد، لأنّها تتّسع لكل منتسب إلى روحانية الإسلام الخالصة، ولا تقبل تلك الأقاليم الضيقة والوطنيات المحدودة، منبع شقاء المسلمين ومبعث بلائهم الّذين يشكّلون في مجموعهم ما أطلق عليه الشيخ اسم الوطن الإسلامي، الذي يشمل كل مكان تقام فيه شعائر الإسلام ، مهما كان بعيدا أو قلّ عدد أهل[18]. إنّ فكرة الجامعة الإسلامية، التي آمن بها الإبراهيمي ودعا إليها، وابتغى لتحقيقها، وحثّ على إحيائها قد تجسّدت فيما بعد في منظمة المؤتمر الإسلامي حتى وإن كانت ذات تأثير ضعيف وفعالية قليلة، بسبب عدم جدّية القائمين عليها، والمروجين لها في العا لم الإسلامي، من حكّام ومسؤولين وقادة.

ومهما يكن الأمر فالإبراهيمي قد قام من جانبه بواجب العلماء من أمثاله ، بالبحث عن الفكرة وبيان مزاياها على الأمّة، تلك الروحانية التي تجعل كل الأوطان الإسلامية وطنا مسلما بحكم الدين الإسلامي[19].

ويمضي الشيخ البشير الإبراهيمي، في حديثه عن دور الاستعمار في التفرقة بين المسلمين، والتضريب بين صفوفهم كثرة الطوائف والمذاهب المفرّقة؛ وهو ما أنكره خلال زيارته لباكستان، حيث وجد ذلك البلد الإسلامي يعج بالصراع الطائفي والمذهبي، الذي وصل إلى حدّ امتلاك كل طائفة لمساجدها الخاصة، التي يحق لأتباعها فقط دون غيرهم الصلاة فيها، ممّا يزيد في تفرقة المسلمين ، فهذه القضية، بالنسبة للإبراهيمي، هي من أكبر أسباب تشتيت صفوف المسلمين، وممّا يزيدها خطورة، وقوعها في بلد إسلامي ناشئ كباكستان، مقبل على حياة جديدة، تتطلب جمع الكلمة وليس تفرقتها، ومن ثمّة يرى بأنّ سكوت العلماء هو جريمة ثابتة، فضلا عن تشجيعها لهم، لأنّ هذا الوضع يخالف ويناقض الحكمة من بناء المساجد في الإسلام ، والقاعدة المطلقة في كونها لله وليس لغيره[20]

3 – الإسلام مقرون بالعربية والعروبة :

ورد في كثير من كتابات الشيخ البشير الابراهيمي اقتران العروبة بالإسلام، فالشيخ يعتبر العنصرين مرتبطين ببعضهما البعض، ذلك وكما قال عبد الحميد بن باديس شعب الجزائري مسلم وإلى العروبة ينتسب،هذا، وإنّ الشيخ الإبراهيمي يوقن أنّ اللغة هي أساس الهوية، وعنصر الانتماء لهذه الأمّة، وأن فوات اللغة موت للأمة؛ يقول: " إنّ هذه الأمة تعتقد وتموت على اعتقادها أن لغتها جزء من كيانها السياسي والديني وشرط في بقائها، وقد التقى على الكفاح في سبيلها الدّين والسياسة، فلم يختلف لهما فيه رأي، ولم يفترق لهما قصد". كما يرى أيضا أنّ الأمة الجزائرية ترى في اللغة العربية زيادة على ذلك القدر المشترك، أنّها حافظة دينها، ومصحّحة عقائدها، ومدونة أحكامها، وأنّها صلة بينها وبين ربّها، فهي لذلك عليها يد الضنانة، وما تودّ أن تبدل بها لغات الدنيا، وإن زخرت بالآداب وغاضت بالمعارف، وسهّلت سبل الحياة وكشفت عن مكنونات العلم فإنّ أخذت بشيء من تلك اللغات فذلك وسيلة إلى الكمال، في أسباب الحياة الدنيا، أمّا الكمال الروحاني والتّمام الإنساني، فإنها لا تنشده ولا تجده إلاّ في لغتها التي تكَوَّن منها تسلسلها الفكري والعقلي، وهي لغة العرب. فاللغة العربية بالنسبة البشير الإبراهيمي بها يكون البناء الثقافي للشعب لأنها تحمل تراثه وأصالته.

ويذكر أبوالقاسم سعد الله في كتابه "دراسات في الأدب الجزائري الحديث" أن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين كانت ترفع شعاراً أزعج سلطات الاحتلال وأزعج معها المتخاذلين والجامدين من أبناء الوطن، "وهذا الشعار هو العروبة والإسلام، والدّفاع عن القومية العربية والدّين الإسلامي في سماحته الأولى[21] ،ويعتبر الإبراهيمي" العربية مسلمة " ،حيث برز هذا في ميثاق الجمعية فهي بالإسلام والعروبة كانت وعلى الإسلام والعروبة تعيش،[22] فهو يؤكّد على نموذج لاندماج العروبة

بالإسلام في المغرب العربي أو ما أطلق عليه "عروبة الشمال الإفريقي" بجميع أجزائه طبيعية، كيفما كانت الأصول التي انحدرت منها الدماء، والينابيع التي انفجرت منها الأخلاق والخصائص، و النواحي التي جاءت منها العادات و التقاليد[23] وينكر الاستعمار عروبة الشمال الإفريقي، ويعمل لمحوها بالفعل، وقتل الموجود بالمعدوم، و إنّما يتعمّد العربية بالحرف لأنها عماد العروبة، وممسكة الدين أن يزول، ولأن لها كتابة و مع كتابة العلم و الأدبي ومع الأدب التاريخ [24].

فيحمل مسؤولية الاستعمار حيث يذكر أنّه يعرف عروبة هذا الشمال ويعترف بها، ولكنّه ممن يكتمون الحق وهم يعلمون، فقد احتلّ هذا الوطن فكانت أقواله في الحرب و السلم، وأحكامه في العدل والظلم، كلّها جارية بأنه عربي، وعلى أنه عربي، وكلمة العرب التي يطلقها على أهله تمييزا أو نبزا أكبر حجة عليه ، ولكنّه في مبتدأ أمره ومنتهاه رجس من عمل الشيطان ، وهل في عمل الشيطان خير أو حق ؟ إنّما هو عناد للحق، وتزيين للباطل، ونقض للخير وبناء للشر ، وما شاء الشيطان من النقائص[25].

ممّا سبق نجد أنّ كلمتي العروبة والإسلام متلازمتان في فكر و كتابات الإبراهيمي، حيث تتكرّرت هذه الألفاظ في معجمه اللفظي: فالثقافة عربية إسلامية، والحضارة عربية إسلامية، والوطن عربي إسلامي، والأمة عربية إسلامية، والقضايا عربية إسلامية، ونحن العرب المسلمون، وحالنا كعرب مسلمين، والتوحيد في ظل العروبة، وخدمة الجزائر والإسلام والعربية، وهي عبارات تتكرّرت لتعني لدى الإبراهيمي أهمّ المقومات الشخصية الإسلامية عامّة ،ومنطقة الشمال الإفريقي خاصة.

كما سخر الإبراهيمي من سياسة فرنسا التي كانت تسعى إلى التفريق بين العرب والبربر. وأثبت أن الدماء البربرية التي مازجت الدم العربي في سلسلة من الزمن امتدت ثلاثة عشر قرنا قد أصبحت عربية. وأكّد أن وحدة الشعب في الجزائر راسخة خالدة سداها وحدة الدم واللسان ولحمتها الدين الواحد وروحانية الإسلام.

4 – النهضة الإسلامية و العربية :

و كان شعور الإبراهيمي بالانتماء إلى الوطن الإسلامي الثقافة الإسلامية ، أقوى بكثير من الشعور بالانتماء إلى الوطن الصغير أو القومية الضيّقة فكان كثير الاهتمام بقضايا الأمّة العربية و الإسلامية التي كانت تعيش تحت وطئة الاحتلال الأوربي، فقد عاش حياته يذود عن حياض العروبة والإسلام، من الرباط غربا إلى أندونسيا شرقا، ومن القرم والتركستان شمالا إلى حضرموت جنوبا. ولم يكن في يوم من الأيام إقليميا يعمل للجزائر وحدها أو للشمال الإفريقي وحده. ولم يكن عنصريا يدعو إلى قومية ضيقة. بل كان إنسانا منصهرا في قضايا أمّته، يدعو إلى وحد إسلامية تسبقها بالضرورة وحدة عربية تقوم على دعائم راسخة من الإيمان بالله والإيمان بهذه الأمة التي شرّفها الله بحمل رسالة الإسلام. فقد عمل على معالجة ركود وتخلّف الأمّة الإسلامية بإعطائه بعضا من الحلول هي:

أ – إصلاح علماء الدين:

إنّ العالم الدّيني في مفهوم الشيخ البشير الإبراهيمي، هو قائد مجال عمله الأنفس، و وسيلته في ذلك الكتاب والسنة ، و تفسيرهما العملي ممّا كان يصدر عن الرسول " ص" وأصحابه من أفعال، ويضيف إلى ذلك أنّه لا توجد في الإسلام وظيفة أشرف قدرا ، وأسمى منزلة وأثقل تبعة ، وأوثق عهدا وأعظم أجرا عند الله ، من وظيفة العالم الديني . والسبب في ذلك كون إنّ العالم الديني، هو وارث مقام النبوة ، الذي من أهمّ تكاليفه، الدّعوة إلى الله و توجيه الناس إليه، وتربيتهم وتعليمهم وتعويدهم ، على فهم الحق وتقبّله ليعملون به وله. أمّا العامل الأساسي ، الذي يجعله يحقق النجاح في مهمته السامية هاته ، هو أن يترفّع عن مطامحه الشخصية ، ويوجه جلّ اهتماماته وانشغالاته إلى خدمة الدّين ، وبما أنّه وارث النبوة ، فينبغي عليه أن يعلّم الناس حقائق دينهم ، ويقول الحق بلسانه و بجوارحه ، وأن يدافع عنه بكل قوة إذا جانبه الناس ، وأن يجاهد في سبيله بكلّ ما أوتي من قوة[26].

ب – إحياء تعاليم الدين الاسلامي :

أرجع الشيخ البشير الإبراهيمي ، السبب الذي مكّن العرب و المسلمين الأوائل من القوة و الرقي إلى الإسلام، الذي بفضل هديه أصبحوا أساتذة العالم ، و امتدّت دولتهم امتدادا كبيرا في الشرق و الغرب . أمّا السرّ في ذلك، فيكمن في رأيه في تميز الإسلام على سائر الأديان الأخرى ، إذ إنّه دين فطرة و روح ، يحمل في مضمونه أقصى الكمال الإنساني ، كما أنّ أصوله بنيت على الحكمة الإلهية ، حيث نجد عقائده غذاء للعقل ، وفي عباداته تزكية للنفس ، وفي أحكامه اعتبار للمصلحة ، وفي آدابه منفعة للمجتمع ، أي أنّه جمع بين مطالب الروح والجسم ، اللذين لا تكتمل سعادة الإنسان إلاّ بهما.[27]

كما يعتبر شيخنا البشير أنّ القول بأنّ النهضة العربية والإسلامية لا يمكن أن تتحقّق بالإسلام هو افتراء يروجه أعداء الدّين الإسلامي بأشكال شتّى ؛ تارة تحت غطاء العلم ، وتارة أخرى باسم الأعمال الخيرية والإحسان.

ج – دور الفعّال للمثقفتين :

يعتبر الإبراهيمي بأنّ المثقفين هم الفئة التي تتولىّ الحفاظ على التوازن في أممهم، و القيام على الحدود حتى لا تهدم ، و على الحرمات لكي لا تنتهك، وعلى الأخلاق أن تزيغ . كما أنهم بمثابة الميزان ؛ يعرف من خلاله كل فرد في المجتمع قيمة نفسه حيث يراهم العامي المقصر فوقه فيتقاصر عن التسامي لما فوق منزلته ، ويراهم الطاغي المتجبر عيونا حارسة فيتراجع عن العبث و الاستبداد . فإذا كانوا متبوعين فالأجدر بغيرهم أن يكون تابعا ، وإذا كانوا في المرتبة الأولى فإنّه يفترض في غيرهم أن يكون في المرتبة الثانية ، فلا شيء يضرّ الأمم مثل الفوضى في الأخلاق، و الفوضى في مراتب الأفراد.

إنّ دور المثقفين في رأى الإبراهيمي تبدأ بإصلاح أنفسهم أوّلا ، لأنّ الذي لا يستطيع أن يصلح نفسه لا يتسنّى له أن يصلح غيره. وذلك باستكمال نقائصهم العلمية و مؤهلاتهم التثقيفية ، حتى يتمكّنوا من تثقيف غيرهم ، فليس كلّ مثقف أهلا ليقوم بدور المثقفين. القيام بالإصلاح الاجتماعي، بين كل الطوائف التي يتألّف منها المجتمع ، من خلال التّعارف والتّقريب بين الأفكار ، وبالتّفاهم في إدراك الحياة و تصحيح أوجه النظر إليها ، وبالاتّفاق على تصحيح المقياس الذي يوزن به المستوى الثقافي السعي لكسب ثقة الأمة ، بالامتزاج بها والاختلاط بطبقاتها، و التّقرب إليها ، ومشاركتها في كلّ شؤونها الدّينية و الحياتية، من عبادة وعوائد صالحة [28].

5 – استخدام مصطلحات وتعابير إسلامية

فكثيرا ما يمر علينا في جلّ كتابات الإبراهيمي من نثر تضمين النص شيء من القرآن أو السنة، حيث يرى الباحث عبد الرزاق قسوم أنّ في مقدمة الرموز التي يحيل إليها البشير الإبراهيمي في خطابه،الآية القرآنية يوظفها ببراعة، وسط عباراته، توظيفا رائعا في الدفاع عن قضايا أمّته ،فلا يدرك كنّهها إلاّ العارفون بالقرآن والمتضلّعون في فنّ إعجازه البياني [29] ومن العبارات الإسلامية الأخرى ترد عبارة " أيها الإخوان ،أيها المسلمون ،أيها العرب ...

فالإمام البشير الإبراهيمي خريج المدرسة القرآنية، يوظف الآيات القرآنية في دراساته أو خطبه، وهذا إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على مدى تأثرّه بالحياة الروحية الإسلامية، وتمسّكه بإحدى أهمّ مكونات الشخصية الجزائرية الأصيلة.

ومن خلال ما سبق لاحظنا أنّ الإبراهيمي كان في كتاباته مؤمنا أشدّ الإيمان بعروبته وإسلامه، متشبثا بوطنه المسلم؛ إذ لم يفصل المواطنة عن الإسلام، بل جعلهما ثنائيتين متلازمتين، ولقد خاض الإبراهيمي مواضيع سياسية واجتماعية عديدة لا يمكننا حصرها في هذا البحث، تعكس مبدأه وفكره المستمد من الإسلام، فهو يقدّم الإسلام قبل كل شيء، فلقد استطاع الإبراهيمي أن يمدّ أواصر الأخوّة بكتاباته وآرائه، ويهتمّ لأحداث العالم، بدعوته للعالم قاطبة إلى الوحدة العربية والإسلامية.

كما لاحظنا أنّ البعد الإسلامي البارز لدى الشيخ الابراهيمي في كتاباته الأدبية والتاريخية و الفكرية على السواء، ليس كبعد متطرف متعصب، ولكنه بُعْد يبغي الوسطية والاعتدال دون تفريط أو إفراط.

الهوامش :

[1] رابح تركي عمامرة ، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التاريخية (1931- 1956) و رؤساؤها الثلاثة ،دار موفم للنشر ،الجزائر ،2009 ص 199

[2] بشير فايد ، قضايا العرب والمسلمين في آثار الشيخ البشير الإبراهيمي و الأمير شكيب أرسلان . دراسة تاريخية وفكرية مقارنة، أطروحة دكتوراه ،كلية العلوم الإنسانية و الاجتماعية ، جامعة قسنطينة ، 2009 – 2010 ص 116

[3] رابح تركي ، المرجع نفسه ،ص 199

[4] بشير فايد ، المرجع السابق ،ص 128

[5] رابح تركي ، المرجع السابق ،ص 193

[6] محمد الطاهر فضلاء، الإمام الرائد الشيخ محمد البشير الإبراهيمي في ذكراه الأولى،) قسنطينة -الجزائر:مطبعة البعث، 1967 م(،ص 17

[7] محمد البشير الإبراهيمي ، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي ،(جمع وتقديم :أحمد طالب الإبراهيمي) ، ج 4، دار الغرب الإسلامي،بيروت ،1997، ص 17.

[8] تركي رابح عمامرة ، المرجع السابق ،ص ص 238 - 239.

[9] عبد الرحمان شيبان ،مقدمة مجلة الشهاب ،دار الغرب الإسلامي ،بيروت ،2000 ،لبنان ، ص 22.

[10] محمد البشير الإبراهيمي،آثار... ، ج 2 ، المصدر السابق ، ص 375 .

[11] البصائر –س2- ع148 -1951م- وعيون البصائر –ص441-

[12] فايد بشير ، المرجع السابق ، ص

[13] محمد عباس، البشير الإبراهيمي أديبا، الجزائر ديوان المطبوعات الجامعية، المطبعة الجوية بوهران 1984م.

[14] امحمد البشير الإبراهيمي ،آثار ج 5، المصدر السابق ص 8.

[15] السعيد بوقار ،فلسطين في أدب البشير الإبراهيمي ،رسالة ماجستير ،كلية الآداب و اللغات ،جامعة منتوري ،قسنطية ،2007 . 2008 ، ص 342.

[16] يمكن اعتبار الجامعة الإسلامية كسياسية دفاعية تسعى الى تخليص المسلمين من السيطرة عن طريق توحيدهم ،و بعبارة أخرى الجامعة الإسلامية هي رد فعل على فكر استعماري قادته القوى الغربية ضد المسلمين أكثر مما تكون تحركات داعية مسلم ينظر :محمد بوشناقي ، "الجامعة الإسلامية و صداها في الجزائر من أواخر القرن التاسع حتى 1914"،مجلة الحوار المتوسطي ،العدد 03،04 ،كلية الآداب و العلوم الإنسانية ، جامعة سيدي بلعباس ،2012، ص 75.

[17] محمد البشير الإبراهيمي ، آثار ، ج 4 ، المصدر السابق ، ص 13

[18] محمد البشير الابراهيمي ،آثار ، ج 3 المصدر نفسه ، ، ص 420 .

[19] نفسه ، ص 184.

[20] محمد البشير الإبراهيمي ، آثار ، ج 4 ، المصدر نفسه ، ص 45.

[21] سعد الله، دراسات في الأدب الجزائري الحديث، الدار التونسية، تونس، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1985، ص:119.

[22] محمد البشير الإبراهيمي ،المصدر السابق ،ج 1،ص 24

[23] محمد البشير الإبراهيمي آثار ، ج 3 ، المصدر سابق ، ص 424 و ما بعدها

[24] نفسه ، ص 424

[25] حمد البشير الإبراهيمي : آثار ، ج 3 ، المصدر نفسه ، ص 424 و ما بعدها

[26] محمد البشير الإبراهيمي : آثار ، ج 4 ، المصدر نفسه ، ص ص109 110

[27] محمد البشير الإبراهيمي ، آثار ج 1 ، المصدر نفسه ، ص108

[28] محمد البشير الإبراهيمي، آثار ، ج 2 ، المصدر نفسه ، ص129

[29] محمد البشير الإبراهيمي ، آثار ، ج 3، المصدر نفسه ، ص 6